المدن في العصور الوسطى: (ما قبل الصناعة)[1]

يختلف الباحثون في إطلاق مصطلح العصور الوسطى على المدن في هذه المرحلة لأن هذا المصطلح يرتبط بالتاريخ الأوروبي ولا يمكن تطبيقه على جميع المدن لذلك يطلق مكانه مصطلح ما قبل الصناعة.

حيث تميزت المدن في أوروبا بالتدهور خصوصا في العصور المظلمة وبداية تفكك الامبراطورية الرومانية في حين في العالم الإسلامي شهد ازدياد مراكز المدن وأحجامها في نهاية القرن الرابع عشرة أين بدأت الأمور بالاختلاف عن سابق عهدها.

المدينة العربية والإسلامية:

"المدينة الإسلامية تعبير فضفاض، وذلك لأن التغير المحلي كان يميز كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي، ولا يرجع هذا الطابع المحلي إلى عامل قومي بقدر ما يرجع الى تباين المناخ و التربة والتراث الحضاري ونظم التجارة والخلفية الثقافية بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي الواسع، ويمكن بصفة عامة أن نقسم العالم الإسلامي إلى أربعة أقسام مميزة، فالقسم الغربي شهد تراث من اليونان والرومان وتأثر بوقوعه بين عالم البحر المتوسط والصحراء، و ثمة قسم شرقي يمكن أن نميز فيه بين تراث الحضارات الايرانية والهندية، وفي داخل هذه الأقسام الكبيرة يمكن أن نصل إلى تقسيمات فرعية، فمدن وادي النيل لها طابع يختلف عن شمال إفريقيا والشام".

يرى ماكس فيبر أن المدينة بمعناها الكامل لابد أن تتوفر فيها 5 شروط وهي:

- الحصون الدفاعية.
- الاسواق
- محكمه خاصة وقانون خاص ومستقل نسبيا
- حد أدنى من الترابط والمشاركة.
- حكومة ذاتية وادارة مستقلة منتخبة.

إن العناصر المذكورة سابقا تتوفر في المدن العربية والاسلامية فالأشراف في مكة كانوا يختارون زعيمهم كما أن الأحياء في المدينة كانت تدار بطريقة شبه مستقلة من طرف كبار السن (الجماعة)، كما أن الحاكم لا يمكن له التدخل في اجراءات التقاضي.

[1]- أحمد علي إسماعيل جغرافية المدن دار الكتاب الحديث القاهرة 2012 ص 60

بالإضافة الى هذا فإن هذه المدن تتميز بشوارعها الملتوية وأسوارها الدفاعية وساحاتها المركزية ومساجدها المعلمية، كما أن هذه المدن خصوصا في الفتوحات الإسلامية كانت لها الصفة الحربية في تخطيطها كما أن العلاقة بين هذه المدن وأريافها كانت نسبية منفصلة في بدايات تأسيسها فظلت هذه المدن عربية والأرياف وقفا على البربر حتى دخلوا الاسلام (شمال افريقيا).

مثال عن مدن واد مزاب:

لقد كان للإسلام دور هام في تطور المدن حتى أن أول عاصمة في الاسلام حملت اسم " مدينة" وغيرت اسمها القديم "يثرب".

المدن الأولى التي أنشأها المسلمون كانت تشترط مواقع ومواضع من نمط خاص كأن تكون:

- حاكمة للطرق وملتقى لها
- أماكن الانتقال الطبوغرافي بين السهل والصحراء أو بين البر والبحر أو بين الأودية والجبال أو عند ضفاف الأنهار.
- القرب من مصادر المياه وغير قاطعة لاتصالية هذه المواقع للاتجاه البري صوب شبه الجزيرة العربية بأنهار أو بحار " وصية عمر بن الخطاب لعمر بن العاص في فتح مصر لا أحب أن ننزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف".

هذه الشروط الأولية والبدايات المتواضعة لهذه المدن لم تكن عائقا أمام تطورها وازدهارها حيث أنشأ البصرة عام 16 هـ والكوفة عام 18 هـ والقيروان عام 50 هـ.

كما كانت كل من القاهرة وبغداد كمدن إسلامية كبرى حيث تلاحمت فيها العديد من المحلات العمرانية التي كانت كمعسكرات حربية.

- بغداد تحيط بها الحربية في الشمال والكرخ ذات الصبغة التجارية في الجنوب والرصافة عبر الدجلة وقد بدأ تخطيطها عام 145هـ على شكل دائرة تخترقها الشوارع ويتوسطها المسجد الجامع وقصر الخليفة المنصور والدواوين ويحيط بها سور عليه أبواب وأبراج.
- القاهرة انشاها جوهر الصقلي عام 358 هـ (969م) كمعسكر لجيش الفاطميين حولها أسوار وثمانية أبواب أهمها باب الفتوح وباب زويلة ويربطهما طريق رئيسي "بين القصرين" الجامع الرئيسي وجامع الأزهر تم انشاءه عام 361 هـ حيث التحمت بالفسطاط فيما بعد.

المدينة الأوروبية:

تتميز المدن الأوروبية في العصور الوسطى أو ما يعرف بالعصور المظلمة الممتدة من القرن الخامس ميلادي إلى القرن العاشر بسقوط بقايا الدولة الرومانية وانهيار المدن وظهور التخلف والركود خاصة في القرن التاسع أصبحت العديد من المدن مجرد أطلال وأسوار يأوي إليها الرهبان والفلاحون.

إلا أن بداية النشاط التجاري وظهور قوافل التجار المتسولين الذين يعبرون القارة بأكملها بدأ ينشط شبكة المدن الخاصة بعد ظهور المعارض والأسواق الدولية حيث نمت المدن الخاصة في جنوب أوروبا (البندقية) أو (فينيسا) بعد القرن العاشر ميلادي.

بدأ السكان في حكم أنفسهم حكما ذاتيا حيث يعتبر أول دستور وضعه لويس السادس (1108-1137) لمدينة لور (Lorres) في واد اللوار الأعلى، و الذي ينص على أحقية من يسكن المدينة في السكن وقطعة أرض بإيجار محدد، وأن كل من يسكن المدينة سنة واحدة ويوما واحدا يصبح حرا.

كما أعفي سكانها من بعض الحقوق الإقطاعية (الخدمة العسكرية والتسخير للخدمة).

المحاكمة داخل المدينة التي يسكنونها والخضوع لإجراءات معينة في التقاضي.

حيث أخذت الكثير من المدن بهذا الدستور.

الحكم المركزي وسلطة الدولة الموحدة:

تؤدي هذه السلطة الى نمو العاصمة بدرجة واضحة، بينما تبقى غيرها من المدن أقل مرتبة، أما في ظل الإقطاع فإن كل مدينة يتخذها النبيل أو السيد الإقطاعي مقرا له، تعتبر منافسة لغيرها أو مناظرة لها وأمام كل منها فرصة للنمو مع غيرها من المدن الإقطاعية.

- مرحلة الإقطاع التي سادت أوروبا تركت بصمتها واضحة على المدن وأقاليمها التي كان سادة الإقطاع يديرونها لأنها كانت تتنافس فيما بينها ولا تخضع لسلطة مركزية.

- بعد خروج أوروبا من مرحلة الإقطاع ظهرت فئة جديدة الى جانب ملاك الأراضي (النبلاء) وهي فئة التجار الذين حققوا لأنفسهم ثروات كبيرة في التجارة الخارجية، وبدأت نتائج الاحتكاك الحضاري بين الشرق والغرب تظهر نتائجها في النهضة الأوروبية والتحول التكنولوجي المعتمد على مصادر جديدة للطاقة المحركة بدلا من الجهد الحيواني والإنساني كاستعمال الرياح والمياه، والوقود في صورة الخشب والفحم فيما بعد.

.

- مع قرب نهاية القرن الخامس عشر أصبحت الأسوار الدائرية القديمة المحيطة بالمدن غير صالحه لحمايتها وخصوصا مع قذائف المدفعية المصنوعة من حديد الزهر الذي يخترقها حيث طور الشكل التقليدي للأسوار من الشكل الدائري الى الشكل النجمي.

حيث توجد على رؤوس هذه النجمة قلاع قوية تعتبر كمراكز متقدمة للدفاع ومن أمثلته سور مدينة نيس بجنوب فرنسا.

رغم دور التجار المتجولين في أحياء المدن الأوروبية إلا أن دورهم بدأ بالتراجع بعد ظهور الأنشطة التجارية القارة والثابتة وكذا ظهور المؤسسات التجارية حيث أنه في بعض الدول منع التجار المتجولون من ممارسة نشاطهم مثل السويد بقرار ملكي مما جعل المدن فيها كأسواق دائمة للمؤسسات وليست أسواق مؤقتة

في القرن 17 ميلادي بدأت ملامح النهضة الأوروبية بالظهور حيث تميزت بـ:

- قوة نفوذ الدولة وبروز القصر في المدينة (سابقا الكنيسة، السوق، دار النقابة).
- التمايز الاجتماعي حيث أصبح الأمير في قمة الهرم.
- الرأسمالية وظهورها الذي ساهم في الاهتمام بالمدن القائمة في تطويرها حيث أصبحت مركزا لرؤوس الأموال والإدارات.
- بروز أهمية مواقع المدن في زيادة عدد سكانها ودرجة استقطابها.
- التخصص الوظيفي لبعض المدن.
- بداية ظهور هراركية المدن واشراف الدولة على تخطيطها.
- ظهور مدن الباروك، بشوارعها الواسعة والمستقيمة (ظهور المركبات، وحركة الجيوش

اهم مايمكن ان نميزه في مدن العصور الوسطي من ناحية ديناميكيتها الحضرية انها تختلف عن سابقتها فالمدن العربية الاسلامية التي أنشأها المسلمون كانت تشترط مواقع ومواضع من نمط خاص وتخضع لسلطة مركزية وعلاقات وظيفية وتجارية فيما بينها كما أن العلاقة بين هذه المدن وأريافها كانت نسبية منفصلة في بدايات تأسيسها فظلت هذه المدن عربية والأرياف وقفا على البربر حتى دخلوا الاسلام (شمال افريقيا) كما أن نموها العمراني كان متصل وفي كل توسعة تحاط بسور جديد .

- **أما المدن الأروبية فالسلطة المركزية تؤدي الى نمو العاصمة بدرجة واضحة، بينما تبقى غيرها من المدن أقل مرتبة أي ظهور هراركية المدن، وفي ظل الإقطاع فإن كل مدينة يتخذها النبيل أو السيد الإقطاعي مقرا له، تعتبر منافسة لغيرها أو مناظرة لها وأمام كل منها فرصة للنمو مع غيرها من المدن الإقطاعية.**

- الكبيرة حيث كان ربع سكان برلين جنود عام 1740 م).

حيث تعتبر مدينة فرساي 15 كم جنوب غرب باريس أهم هذه المدن التي تتميز بمتاحفها وحدائقها وشوارعها الواسعة جدا.
حيث كانت كقلعه للصيد عام 1624 ثم أنشأ فيها لويس الرابع عشر قصر التريا نون 1668-1682
حيث يمكن لنهر فرساي أن يتسع 10.000 شخص وطول واجهته 578 متر وفيه بحيرة على شكل صليب طولها 1.5 كم. والمستقيمة.